شرفات التفاهم

نحو وعي تاريخي يعيد للزمن مكانته

بشاير السليمية

في مقال «التاريخ والوعي بالتاريخ»، يُحاول حسن حنفي أنْ يُؤسِّس قاعدة؛ مفادها أنَّ الوعي بالتاريخ هو شَرْط دراسة التاريخ؛ يُناقش فيها ترائي الحاضر في الماضي، وأسباب غياب الوعي بالتاريخ عن وجداننا المعاصر، والوعي المعاصر بالتاريخ بين الأنا والآخر. ويُوضح حنفي أنَّ ”الهدف من دراسة التاريخ هو تنمية الوعي التاريخي وتعميقه. فدراسة التاريخ ليست غاية في ذاتها من أجل عمل أرشيف للتاريخ خارج الوعي القومي، بل وسيلة لتعميق الوعي القومي ومدِّه بخبرات تاريخية سابقة، تساعده على رؤية الحاضر ومكوناته التاريخية؛ لذلك يُمكن دراسة التاريخ عن طريق قراءة الحاضر في الماضي؛ فالحاضر ما هو إلا تراكم للماضي».

وبهذا؛ يذهب بنا حنفي بحثا عن آثار الوعي التاريخي في الحقب الزمنية التي مرَّت بنا في القرون السابقة؛ مُحدِّدا ما لا يندرج تحت مظلة الوعي التاريخي كالحوليات وكتب الطبقات والوقوع في الرد التاريخي والنزعة التاريخية التي ليس من الممكن أن تنفخ روحا في التاريخ.

وقد كانتْ الأخيرة التي وَقَع فيها أوجست كونت، يتوقَّف فيها الفكر عند تعليل الظواهر بالرجوع إلى المبادئ الأولى، وتكتفي باكتشاف قوانين الأشياء وعلاقات الأشياء عن طريق الملاحظة والتجربة الحسية.. يقول حنفي: ”التاريخ هو قصد وَعْي جماعي يصبُّ في الوعي الفردي، والتاريخ هو جذر الوعي وأساسه؛ فعلى أساس الوعي بالتاريخ تتم دراسة التاريخ، فهو المسار والقانون، وروح التاريخ».

وقد عَزَا حنفي تأويل المسار التاريخي إلى حركتين: الحركة التراجعية للحقيقة، أو ترائي الحاضر في الماضي، وهي التي تجلب الماضي في الحاضر ليستنير به، والحركة التراجعية التقدمية، والتي تجمع بين الحركة التراجعية للحقيقة ونقيضتها؛ فينعش قلب التاريخ انقباضا وانبساطا.

ويتساءل حنفي عن مدى حضور الوعي التاريخي لدينا وأسباب غيابه، ويستند في تأكيد ذلك إلى العلوم العقلية والنقلية الأربعة: علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلوم الحكمة، وعلوم التصوف الخالية في المجمل من الوعي التاريخي لأسباب؛ منها: تجريد الإنسان من عمل الفعل، في حين أنَّ ”الوعي التاريخي لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان خالق فعله“. فالنص -حسب حنفي- هو ”الأساس في الأدلة الشرعية وليس الواقع والتاريخ، وما لم يكن الإنسان والتاريخ عصبا الوعي غاب ولم يتحقق».

أما في العلوم النقلية الخمسة -القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه- فقد غاب الوعي بالتاريخ؛ إذ ”تقتصر العلوم على الكلام والنصوص خارج التاريخ، كما كتب بعضها بطريقة الحوليات (التي ترصد الحوادث عاما بعد عام دون رؤية لمسار التاريخ أو قصده أو غايته)».

ويقول حنفي: إنَّنا نجد في القرآن ما يستجيب لمتطلبات تغير الزمان والمكان؛ فنزوله مفرَّقا وتبيان أسباب نزوله والناسخ والمنسوخ على أن الحياة تتغيَّر بتغيُّر المكان والزمان (وما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها). وما كان هذا إلا وجوب الحركة والتطور؛ فالقرآن الكريم تجاوز حدود المكان والزمان، وأتاح فرصة تعدُّد القراءات للأحكام والمبادئ والقضايا.

وإذا ما تحدثنا عن العلوم الخالصة كالعلوم الرياضية والفلك والموسيقى؛ فيراها حنفي خالية هي الأخرى من التاريخ؛ ”لأنها تدرس الظواهر في حالتها الراهنة دون تاريخها. أما العلوم الإنسانية -باعتبارها مُرتبطة بالإنسان- فتاريخ كل علم جزء من العلم وليس منفصلا عنه». ورَغْم ذلك، ظهرت بعض المحاولات لتأسيس وعي تاريخي؛ بدءا من ابن خلدون في القرون السبعة الأولى من التاريخ الإسلامي، ثم انقطع بعد وفاته لقرون سبعة تالية، ليقدم من بعد عدد من الفلاسفة والعلماء دراسات عدة تفاوتت بين وضعه كموضوع جديد وبين بعثه، ووضع فلسفة جديدة له. ومن المحاولات ما حاوله عدد من العرب من الجمع بين التراث العربي والغربي؛ مما ساهم في تغريبه، إلى أنْ ”حاول آخرون تحقيقه في مراحل متمايزة، وإذا ما بلغ الوعي مرحلته الأخيرة توقف التاريخ واكتمل الوعي».

ويقول فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ: ”إنَّ ما نشهده الآن ليس نهاية للحرب الباردة، أو مرور فترة معينة لمرحلة ما بعد الحرب، وإنما نهاية للتاريخ، بوضع حد للأفكار الأيديولوجية في التاريخ الإنساني، وانتشار قيم الليبرالية الديمقراطية الغربية».

ولكنْ إذا كُنَّا نسلِّم بأن التاريخ هو عمر الزمن الكبير، وهو الخط السائر من الماضي مرورا بالحاضر وصولا إلى المستقبل، والوعي بهذا الخط الزمني هو ما يحاول حنفي في مقاله أن يبحث عنه وعن دواعي غيابه في التاريخ الإسلامي، أقول إذا كنا نسلم بهذه الخطية والتراكمية في التاريخ؛ فهل لهذا الخط من نهاية يُمكن القول بأنها النهاية لهذا التاريخ كما يقول فوكوياما؟

لعلِّي أستعير جُملة مما قاله الباحث العماني زكريا المحرمي في كتابه ”استئناف التاريخ“: ”الكل يدَّعي أنَّ نظريته تمثل نهاية التاريخ، ولكن التاريخ يتجاوز تلك ويثبت فشلها، ويقذف لنا بحره الزاخر كل يوم بكنز جديد من الأفكار والنظريات والتجارب السياسية التي يكمل اللاحق منها السابق، أو يلغيه أو يبدِّده؛ فتاريخ الإنسان ليس سوى تاريخ أفكاره، فإن توقَّفت الأفكار توقف الكون، والأفكار باقية ما دامت السماوات والأرض».

ويبقى علينا إذن -كما يُقرر حنفي- أنْ نعي في أي مرحلة تاريخية نعيش؛ فلا نغرق في بحر السلفية ولا نحترق بنار العلمانية، اللتين إذا ما أسقطنا الماضي على الحاضر نتجت الأولى، ومتى ما أسقطنا المستقبل على الحاضر نتجت الثانية، بل علينا أنْ نستحضرَ الماضي في الحاضر؛ فنستنير به، وأن نستحضر الحاضر في الماضي ليحيا.

وأخيرا: يبدو أنَّ الحاضر وحده من يَدْفع ضريبة غياب الوعي التاريخي المنشود، ووحده ضحية الحركة التراجعية وأختها التقدمية التراجعية؛ فمتى ما وَعِيْنا أن الحاضر إنما هو تراكم تاريخي وحلقة في سلسلة الزمن المتصلة، أمكننا فهم الحلقات المكونة للتاريخ بما يضيء حوادثه بالنظر إلى الواقع وأحواله وبما يتناسب مع مقتضيات السياق الفعلي، لا النموذج الذي نفترض مثاليته في زمن آخر.

bash.19929@gmail.com